

# الصراع بين الحبشة

## والاستعمار الغربي

وهل بربر الاستعمار غزوها؟

للأستاذ محمد عبد الله عنان

وقعت أخيراً عدة حوادث ومصادمات خطيرة على حدود الحبشة بين الإيطاليين والأجباش؛ وكان المظنون أن الكدر الذي أصاب العلاقات الحبشية الإيطالية من جراء حادث الاعتداء على القنصلية الإيطالية في جونا دار قد زال بعد اعتذار الحكومة الحبشية وقيامها بالترضية المطلوبة. ولكن حادثاً أشد خطورة وقع منذ أيام قلائل على الحدود الحبشية مما يلي السومال الإيطالي؛ فقد نشبت معركة دموية شديدة بين قوة من الأجباش وقوة من الإيطاليين عند مركز اولوال الذي يدعيه كل منهما، قتل وجرح فيها من الفريقين عدد كبير يقدر بالآلاف؛ وقد وقف القتال على أثر ذلك، وانسحب الأجباش إلى داخل الحدود، ورفضت الحكومة الحبشية الأمر إلى عصبة الأمم؛ ولكن الجو ما زال كدراً متقللاً يختلف الاحتمالات

ومما يلفت النظر بنوع خاص أن يقع هذا التوتر وهذه الحوادث الخطيرة بين الدولتين عقب الزيارة الملكية التي قام بها ملك إيطاليا في الإريتريا والسومال، والظاهرات العسكرية التي نظمتها السلطات الإيطالية بهذه المناسبة. ولا ريب أن طواف ملك إيطاليا بالأمالك الإيطالية في أفريقية الشرقية لم يكن بقصد الزهة والتريخ، ولكنها زيارة سياسية ظاهرة الغزى، وطلبة خطة جديدة ترمع إيطاليا الفاشستية انتهاجها في سياستها الاستعمارية. ومن المعروف أن إيطاليا الفاشستية تعنى عناية شديدة بالتوسع الاستعماري، وأنها خطت في ذلك السبيل خطوات واسعة في طرابلس، حيث استطاعت أن تتوغل في داخلها بعد أن لبثت منذ غزوها تقتصر على احتلال البلاد الساحلية وما يليها إلى سافة قصيرة، واستطاعت بواسطة انكلترا أن تنتزع واحة جنجوب المصرية وما يليها بمقتضى المعاهدة

أنا صعبة إنسانية فهو يريد أن يذلها، وهو يجرب قوى نفسه وطبيعته عليها، أو كأنه يراني خيال امرأة في مرآة، لا امرأة ماثلة له بهواها وشبابها وحسنها وقتنتها، أو أنا عنده كالمجورية من حور الجنة في خيال من هي نوابه، تكون معه، وإن بينها وبينه من البعد ما بين الدنيا والآخرة، فأجمت أن أحطم المرآة ليراني أنا نفسى لا خيالى، واستنجدت كل فتنى أن تجمله يفر إلى كلاً حاول أن يفر منى

فلما ظننتنى ملأت عينيه وأذنيه ونفسه، وانصبت إليه من كل جوارحه، وهجت التيار الذي في دمه ودفتته دفناً - قلت له: أنت يا خليلي نبي، لا يُعرف، أنت نبي، متلفف بانسان، ومن التي تمشق نوباً ليس فيه لابس؟ ورأيت والله يطوف عند ذلك بفكره، كما أطوف أنا بفكري حول المعنى الذي أردته. فلت إليه وقلت: «أنا والله أحبك!»

فقال: «وأنا والله الذي لا إله إلا هو»

قلت: وأستهي أن أغانقك وأقبلك!

قال: «وأنا والله!»

قلت: «فايمتلك؟ فوالله إن الموضع نحال!»

قال: يمتنى قول الله عز وجل: «الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين». فأكره أن تحسول مودتي لك عداوة يوم القيامة»

إني أرى «برهان ربي» يا حبيتي، وهو يمتنى أن أكون من سيئاتك وأن تكوني من سيئاتي، ولو أحببت الأني لوجدتني في كل أني، ولكني أحب ما فيك أنت بخا صتك، وهو الذي لا أعرفه ولا أنت تعرفينه، هو معنك بإسلامة لا شخصك ثم قام وهو يبكي، فاعاد بعد ذلك يا أمير المؤمنين، ما عاد بعد ذلك، وترك لي نداعتي وكلام دموعه! وليتني لم أفعل، فقد رأيت أن المرأة تكشف وجهها للرجل أحياناً، وكأنها لم تلتق حجابها بل ألقّت ثيابها ... ..

محمد عبد الله عنان

طنطا

(١) هنا نس كلابها كما رواه صاحب الأغاني، وهو كل النعة في كتابه

اعتقلهم حكومة الحبشة وأبت إطلاق سراحهم ، وكان التغلب على الحبشة يومئذ زعيم يدعى كلساي ، الذي تلقب باسم الملك « للنجاشي » تيودور ، فهزم واضطر الى التسليم ، وانتحر على أثر ذلك ، وانسحب الانكليز بعد أن أملا شروطهم وحققوا غايتهم . وقام على عرش الحبشة النجاشي يوحنا الثاني ، وفي عهده تقربت ايطاليا من الحبشة وعقدت معها صلوات ودية وثيقة سرعان ما تحولت الى نوع من الوصاية . واستمرت ايطاليا تعمل على تقوية نفوذها وساطانها في الحبشة حتى توفي يوحنا الثاني سنة ١٨٨٩ وخلفه منليك أمير شوا ؛ وكان النير الايطالي قد اشتدت وطأته يومئذ ، وضمت الحبشة واضطرت شئونها الى حد استطاعت معه أن تفرض ايطاليا عليها معاهدة تقضى بوضعها تحت الحماية الايطالية ، وهي المعروفة بمعاهدة « اوشالي » ( سنة ١٨٨٩ ) وعندئذ تقلل النفوذ الايطالي في الحبشة ، وسيطرت ايطاليا على شئونها ومصايرها ، وأخذت تطمح الى امتلاكها وضمها . ولكن شاء القدر أن يكون منليك ، ذلك الأمير الذي ضاعت في عهده الحريات الحبشية هو نفس الأمير الذي يقوم بتحريرها من النير الأجنبي . ففي سنة ١٨٩٥ ، اضطرت الحبشة بشورة عظيمة ضد النفوذ الأجنبي بزعامه منليك ، ونشبت الحرب بين الايطاليين والأجاش ، وهزم الايطاليون هزيمة ساحقة في « عدوه » من أعمال ولاية تجري في قاصية شمال الحبشة ، وذلك في أول مارس سنة ١٨٩٦ ، وأرغمت ايطاليا على أن تعقد مع الحبشة معاهدة جديدة تعترف فيها باستقلالها ( معاهدة ادريس ابابا ) ، وبذلك استردت الحبشة حرياتها التي لم يطل أمد ضياعها ، وانهارت آمال الاستعمار الايطالي ؛ واستمر منليك الثاني ، أو منليك الأكبر محرر الحبشة يسهر على مصايرها بقوة وعزم ، ويسير بها في سبيل المدنية والاصلاح والتقدم حتى توفي سنة ١٩١٣ . وفي عهده نظمت الحبشة علاقتها مع الدول الأوروبية ، وعقدت معاهدة صداقة مع بريطانيا العظمى ، واستطاعت أن ترغم الدول الاستعمارية على احترامها وعلى الحد من أطماعها

وفي سنة ١٩٠٦ عقد بين ايطاليا وبريطانيا وفرنسا تحالف ثلاثي يقضى بالعمل المشترك لحماية أراضيها ومصالحها في تلك

المروفة ، وأن تصحج بذلك حدودها على حساب الأراضي المصرية ؛ بل لقد استطاعت أخيراً أن تنزع بواسطة انكلترا أيضاً جزءاً من واحة العوينات السودانية وأن تضمها الى برقة الجنوبية ، وزلت لها انكلترا عن تلك المنطقة باسمها وباسم مصر ، ومصر لا تعلم بشيء من ذلك ولم يطلب رأيها فيه . وتبدى ايطاليا الفاشستية نشاطاً واضحاً في تنظيم مستعمراتها الافريقية وتقوية نفوذها الاستعماري ، وتجعل التوسع الاستعماري أساساً لسياستها الأوربية ، فتشترط لتفاهما مع فرنسا أن تحصل على حقوق ومزايا استعمارية في جنوب تونس ، وفي منطقة تشاد ، وتدعو الى تعديل معاهدة الصلح ( معاهدة فرساي ) ، وتحاول أن تثير مسألة الانتدابات الاستعمارية التي استأرت بها فرنسا وانكلترا وحرمت هي منها فلم تظفر بشيء من أسلاب ألمانيا أو الدولة العثمانية ؛ هذا الى اهتمامها بتقوية نفوذها في كثير من الأمم الشرقية ، ومضاعفة جهودها في نشر تجارتها ونفوذها الاقتصادي

ومن الطبيعي أن تخص ايطاليا المنطقة الحبشية بمعظم جهودها واهتمامها ، فهي تملك في تلك المنطقة مستعمرتين كبيرتين هما بلاد الاريترية التي تحد الحبشة من الشمال والشرق وتحجب عنها ساحل البحر الأحمر ، وبلاد السومال الايطالي ، وهي تحد الحبشة من الجنوب والشرق ، وتحجب عنها ساحل المحيط الهندي . بيد أن هذا الاهتمام ليس حادثاً ولا طارئاً ؛ فقد بدأت ايطاليا عصرها الاستعماري في تلك المنطقة ، وامتلكتها بها أول مستعمرة ايطالية . وكان ذلك سنة ١٨٨٥ ، وقت أن كانت الدول الكبرى تنظم اقتسام افريقية الى أملاك ومستعمرات ، فاستطاعت ايطاليا أن تضع يدها على ثمر مصوع وأن تحتل بلاد الاريترية ؛ وكانت السياسة الايطالية تتطلع يومئذ الى التوسع في تلك المنطقة ، والى إنشاء امبراطورية استعمارية ايطالية في شرق افريقية ؛ ولم يكن يحقق ذلك الحلم سوى الاستيلاء على بلاد الحبشة ؛ فالتحذت من الاريترية قاعدة لتحقيق هذه السياسة ، وكانت الحبشة تجوز يومئذ ظروفًا سيئة من تعاقب الثورات والحلقات الداخلية ، وكان الغزو الأوربي قد استطاع أن ينفذ اليها قبل ذلك بأعوام قلائل ؛ ففي سنة ١٨٦٨ ، نفذت حملة انكليزية بقيادة السير نايبير الى بلاد الحبشة لتعمل على إنقاذ بعض البموتيين والرعايا الانكليز الذين

المنطقة ، وهو تحالف تجدد في سنة ١٩٢٥ . ولما توفي منليك الثاني في سنة ١٩١٣ ، خلفه حفيده ابن ابنته « ليجي ياسو » ، وقد كان أبوه الراس غنائيل مسلماً فتتصر تحقيقاً لأطاعه وتزوج من ابنة منليك . ثم نشبت الحرب الكبرى ، واضطرت الدسائس حول ليجي ياسو ؛ واتهم بمالأة المسلمين الذين ينتمى إليهم بأصله ودمه ، ثم اتهم بالارتداد عن النصرانية ؛ ولكن الواقع أن ليجي ياسو كان يرى أن مصلحة الحبشة أثناء الحرب تقضى باتجاهها نحو التحالف الجرماني التركي وابتعادها عن دول الحلفاء ؛ فخشي الحلفاء ولاسيما انكلترا عاقبة هذا الاتجاه ، وأخذت تعمل لأنارة الشجب الحبشي ضد أميره ، وألفت في بطريك الحبشة القبطي خير أداة لحياكة هذه الدسائس ، فاستعمل الدين وسيلة لاضرام الثورة وألقي الزعماء المستقلون فرصهم ، وهزم ليجي ياسو بعد وقائع وخطوب جمة ؛ وأعلنت « زوديتو » ابنة منليك الكبرى امبراطورة للحبشة ، ( سنة ١٩١٦ ) وعين الراس تاقرى ماكونن وصياً للعرش وولياً للمهد ؛ وكان هو الملك وهو الحاكم ، ولم يكن للامبراطورة من السلطة الحقيقية شيء ؛ وبعد بضعة أعوام أعلن الراس تاقرى نفسه امبراطوراً الى جانب الامبراطورة زوديتو ؛ ولما توفيت الامبراطورة سنة ١٩٣٠ ، استقل الراس تاقرى بمرش الحبشة باسم الامبراطور « هيلي سلاسي » ؛ وكان أعظم حادث سياسي في عهده انضمام الحبشة الى عصبة الأمم . وفي عهده قطعت الحبشة مراحل عظيمة في سبيل التقدم والتجديد ، وبذلت جهوداً كبيرة لتنظيم قواتها الدفاعية وتزويدها بوسائل التسليح الحديثة ؛ وونظمت الحبشة علاقتها السياسية والتجارية مع معظم الدول الأوربية ، واستطاعت أن ترد عادية النفوذ الأجنبي عن استقلالها وحريةها

ولكن السياسة الاستعمارية تعود اليوم فتتربص بالحبشة ؛ وتعود ايطاليا فتتجه بصرها وأطاعها الى تلك المنطقة ؛ وظاهر أن نشاط ايطاليا في الارترية والسومال ، وما تبدي هنالك من الاستعدادات الحربية ، وأن زيارة ملك ايطاليا لهاتين المستعمرتين ، وأن تحرش ايطاليا بالحبشة ومحاولتها أن تدفع حدود السومال الى داخل الأراضي الحبشية مما أدى الى حادث أولوال الدموي ؛ ظاهر من ذلك كله أن ايطاليا مقبلة على تنفيذ خطة استعمارية

جديدة في تلك المنطقة . ومما تجدر ملاحظته أولاً أن لفرنسا وانكلترا مصالح هامة في تلك المنطقة ، فانكلترا تحتل السومال الانكليزي ، وتحتل فرنسا السومال الفرنسي وثغره جيبوتي الذي هو مخرج التجارة الحبشية من جهة البحر الأحمر ، والذي يتصل بمصنعتها أديس أبابا بالسكة الحديدية . ولكن فرنسا وانكلترا تأثرمان الصمت والجمود إزاء النشاط الايطالي نحو الحبشة ، ويبدو تحفظ انكلترا وحيادها بنوع خاص في أمرها ليتدوينا في السومال وهو الذي شهد معركة الحدود بين الأحباش والايطاليين في أولوال الايتندخل في النزاع مطلقاً ، وأن ينسحب الى الداخل . ومن المعروف أن التحالف الذي عقد بين ايطاليا وفرنسا وانكلترا في سنة ١٩٠٦ ، وجدد في سنة ١٩٢٥ ، ينص على اعتراف الدولتين بتفوق المصالح الايطالية في الحبشة . ولكن ذلك لم يكن ليكفي لحيدة انكلترا في معركة بين الاستعمار الايطالي والحبشة ، لو لم يتدخل في الموقف عامل خطير آخر ، هو ظهور اليابان على المسرح العالميان تبذل منذ أعوام جهوداً جارية لغزو الأسواق المالية في الشرق والغرب ، وقد استطاعت أن تنافس التجارة البريطانية في معظم الأسواق منافسة خطيرة ، وأن تخلق لبريطانيا مشكلة اقتصادية عظيمة تهددها اليوم في تجارتها الامبراطورية بأخطار العواقب ؛ وظهرت اليابان في شرق افريقية كما ظهرت في غيره ، واستطاعت أن تغزو سوق الحبشة بسرعة ، وأن تكسب عطفها وثقتها ، حتى قيل بأن الامبراطور يتوى أن يعهد في تدريب جيشه الى خبراء عسكريين يابانيين . ولما كانت بريطانيا العظمى تعمل لأحباط هذا الغزو الياباني الخطر بكل ما وسمت ، فقد رأت أن تطلق يد ايطاليا في المنطقة الحبشية لكي تعمل على مقاومة النفوذ الياباني ، ورأت ايطاليا من جانبها أن تعمل لتحقيق مشاريعها الاستعمارية . وأما سكون فرنسا فيحمل على أنها ترى إرضاء التوسع الايطالي في تلك المنطقة ، مما يصرف نظر السياسة الايطالية عن محاولة التوسع في منطقة بحيرة تشاد في السودان الغربي ، ومما يهدى ثورتها وأطاعها نوعاً ؛ وهذا ومن جهة أخرى ، فان ايطاليا تتطلع بنوع خاص الى منطقة بحيرة تسانا الحبشية والى الانتفاع بمواردها ، وبحيرة تسانا التي تغذي النيل الأزرق ، وتعتبر من أهم منابع نهر النيل ، تقع في شمال الحبشة على مقربة من الإريترية المستعمرة